

وَأَمَّا (الصَّائِمُونَ وَالصَّائِمَاتُ) فَظَاهَرُ مَا فِي الصَّيَامِ مِنْ تَخَلُّقِ بَرِيَاضَةِ النَّفْسِ لِبَطَاعَةِ اللَّهِ، إِذْ يَتْرُكُ الْمَرْءُ مَا هُوَ جِبِلِّيٌّ مِنَ الشَّهْوَةِ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ، أَيُّ بُرْهَانًا عَلَى أَنَّ رِضَى اللَّهِ عَنْهُ أَلْذَّ عِنْدَهُ مِنْ أَشَدِّ اللَّذَاتِ مُلَازِمَةً لَهُ.

وَأَمَّا حِفْظُ الْفُرُوجِ فَلِأَنَّ شَهْوَةَ الْفَرْجِ شَهْوَةٌ جِبِلِّيَّةٌ، وَهِيَ فِي الرَّجُلِ أَشَدُّ، وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِذَلِكَ فَقَالَ فِي يَحْيَى وَحَصُورًا [آلِ عِمْرَانَ: 39] وَقَالَ فِي مَرْيَمَ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا [الْأَنْبِيَاءِ: 91]، وَهَذَا الْحِفْظُ لَهُ حُدُودٌ سَنَّهَا الشَّرِيعَةُ، فَالْمُرَادُ: حِفْظُ الْفُرُوجِ عَنْ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِيمَا نُهِيَ عَنْهُ شَرْعًا، وَلَيْسَ الْمُرَادُ: حِفْظُهَا عَنِ الْإِسْتِعْمَالِ أَصْلًا وَهُوَ الرَّهْبَنَةُ، فَإِنَّ الرَّهْبَنَةَ مَدْحُوضَةٌ فِي الْإِسْلَامِ بِأَدِلَّةٍ مُتَوَاتِرَةٍ الْمَعْنَى.

وَأَمَّا (الذَّاكِرُونَ وَالذَّاكِرَاتُ) فَهُوَ وَصْفٌ صَالِحٌ لِأَنَّ يَكُونُ مِنَ الذُّكْرِ بِكَسْرِ الذَّالِ وَهُوَ ذِكْرُ اللِّسَانِ كَالَّذِي فِي قَوْلِهِ: فَادْكُرُونِي أَدْكُرْكُمْ [البقرة: 152] وَقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ: «وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي»، وَمِنَ الذُّكْرِ بِضَمِّهَا كَمَا تَقَدَّمَ أَنْفًا فِي قَوْلِهِ: وَادْكُرْنَا مَا يُتْلَى فِي بَيُوتِكُمْ [الأحزاب: 34]، وَالَّذِي فِي قَوْلِهِ: ذَكُرُوا اللَّهَ فَاسْتَعْمَرُوا لِدُنُوبِهِمْ [آلِ عِمْرَانَ: 135].

وَمَفْعُولٌ وَالْحَافِظَاتِ مَحْدُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ مِنْ قَوْلِهِ: وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ، وَكَذَلِكَ مَفْعُولٌ وَالذَّاكِرَاتِ.

وَقَدْ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْخِصَالُ الْعَشْرُ عَلَى جَوَامِعِ فُصُولِ الشَّرِيعَةِ كُلِّهَا. أَحَدُهُمَا: ذِكْرُهُ اللَّسَانِي فَيَدْخُلُ فِيهِ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَطَلْبُ الْعِلْمِ وَدِرَاسَتِهِ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بَيْوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»، فَفِي قَوْلِهِ: «وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ» إِيْمَاءٌ إِلَى أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ فَدَلَّ عَلَى أَنََّّهُمْ كَانُوا فِي شَيْءٍ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: فَادْكُرُونِي أَدْكُرْكُمْ [البقرة: 152].

وَقَالَ فِيمَا أَخْبَرَ عَنْهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «وَأِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ».. وَشَمَلَ مَا يُذَكَّرُ عَقِبَ الصَّلَوَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَذْكَارِ.

وَالْمَحْمَلُ الثَّانِي: الذِّكْرُ الْقَلْبِيُّ وَهُوَ ذِكْرُ اللَّهِ عِنْدَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: أَفْضَلُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ بِاللِّسَانِ ذِكْرُ اللَّهِ عِنْدَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَهُوَ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ [آل عمران: 135] فَدَخَلَ فِيهِ التَّوْبَةُ وَدَخَلَ فِيهَا الْإِزْتِدَاعُ عَنِ الْمَظَالِمِ كُلِّهَا مِنَ الْقَتْلِ وَأَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَالْحِرَابَةِ وَالْإِضْرَارِ بِالنَّاسِ فِي الْمَعَامَلَاتِ. وَمِمَّا يُوضِحُ شُمُولَهُ لِهَذِهِ الشَّرَائِعِ كُلِّهَا تَقْيِيدُهُ بِكَثِيرٍ لِأَنَّ الْمَرْءَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا فَقَدْ اسْتَعْرَقَ ذِكْرُهُ عَلَى الْمَحْمَلَيْنِ جَمِيعًا مَا يُذَكَّرُ اللَّهُ عِنْدَهُ.

وَيُرَاعَى فِي الْإِتِّصَافِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ أَنْ تَكُونَ جَارِيَةً عَلَى مَا حَدَدَهُ الشَّرْعُ فِي تَفَاصِيلِهَا.

وَالْمَغْفِرَةُ: عَدَمُ الْمُؤَاخَذَةِ بِمَا فَرَطَ مِنَ الذُّنُوبِ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ [23]. وَاعْلَمْ أَنَّ عَطْفَ الصِّفَاتِ بِالْوَاوِ الْمُفِيدِ مُجَرَّدَ التَّشْرِيكِ فِي الْحُكْمِ دُونَ حَرْفِي التَّرْتِيبِ: الْفَاءِ وَثُمَّ، شَأْنُهُ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ الْمَذْكُورُ مَعَهُ ثَابِتًا لِكُلِّ وَاحِدٍ اتَّصَفَ بِوَصْفٍ مِنَ الْأَوْصَافِ الْمُشْتَقَّةِ مِنْهَا مَوْصُوفُهُ لِأَنَّ أَصْلَ الْعَطْفِ بِالْوَاوِ أَنْ يَدُلَّ عَلَى مُغَايِرَةِ الْمَعْطُوفَاتِ فِي الذَّاتِ، فَإِذَا قُلْتَ:

وَجَدْتُ فِيهِمُ الْكَرِيمَ وَالشُّجَاعَ وَالشَّاعِرَ كَانَ الْمَعْنَى: أَنَّكَ وَجَدْتَ فِيهِمْ ثَلَاثَةً أَنَا سِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَوْصُوفٌ بِصِفَةٍ مِنَ الْمَذْكُورَاتِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «فَإِنَّ مِنْهُمْ الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ» أَيُّ أَصْحَابِ الْمَرَضِ وَالضَّعْفِ وَالْحَاجَةِ، بِخِلَافِ الْعَطْفِ بِالْفَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَالصَّافَاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّلَاتِيَاتِ ذِكْرًا [الصفات: 1-3] فَإِنَّ الْأَوْصَافَ الْمَذْكُورَةَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ ثَابِتَةٌ لِمَوْصُوفٍ وَاحِدٍ. وَلِهَذَا فَحَقَّ جُمْلَةً أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا أَنْ تَكُونَ خَبْرًا فِي الْمَعْنَى عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَعاطِفَاتِ فَكَانَتْ قِيلَ: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا، إِنَّ الْمُسْلِمَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُنَّ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا، وَهَكَذَا. وَالْفِعْلُ الْوَاقِعُ فِي جُمْلَةِ الْخَبَرِ وَهُوَ فِعْلٌ أَعَدَّ قَدْ تَعَدَّى

إِلَى مَفْعُولٍ وَمَعْطُوفٍ عَلَى الْمَفْعُولِ فَصِحَّةُ الْإِخْبَارِ بِهِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَوْصُوفَاتِ  
الْمَتَعاطِفاتِ بِاعْتِبَارِ الْمَعْطُوفِ عَلَى مَفْعُولِهِ وَاضِحَةٌ لِأَنَّ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ يَصْلُحُ لِأَنَّ يُعْطَى  
لِكُلِّ وَاحِدٍ وَيَقْبَلُ التَّفَاوُتَ فَيَكُونُ لِكُلِّ مِنْ أَصْحَابِ تِلْكَ الْأَوْصَافِ أَجْرُهُ عَلَى اتِّصَافِهِ بِهِ  
وَيَكُونُ أَجْرُ بَعْضِهِمْ أَوْفَرَ مِنْ أَجْرِ بَعْضٍ آخَرَ.

وَأَمَّا صِحَّةُ الْإِخْبَارِ بِفِعْلِ أَعَدَّ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَعاطِفاتِ بِاعْتِبَارِ الْمَفْعُولِ وَهُوَ مَغْفِرَةٌ  
فَيَمْنَعُ مِنْهُ مَا جَاءَ مِنْ دَلَائِلِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الذُّنُوبَ الْكَبِيرَةَ الَّتِي فَرَطَتْ لَا  
يُضْمَنُ غُفْرانُهَا لِلْمُذْنِبِينَ إِلَّا بِشَرْطِ التَّوْبَةِ مِنَ الْمُذْنِبِ وَعَدًّا مِنَ اللَّهِ بِقَوْلِهِ: كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى  
نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ  
[الأنعام: 54]. وَالْحَقَّتِ السُّنَّةُ بِمُوجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ الْحَجَّ الْمَبْرُورَ وَالْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَأَشْيَاءَ أُخْرَى.

وَالْوَجْهُ فِي تَفْسِيرِ ذَلِكَ عِنْدِي: أَنْ تُحْمَلَ كُلُّ صِفَةٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ عَلَى عَدَمِ مَا يُعَارِضُهَا  
مِمَّا يُوجِبُ التَّبِعَةَ، أَيْ سَلَامَتُهُ مِنَ التَّلَبُّسِ بِالْكَبَائِرِ حَمَلًا أُرَاعِي فِيهِ الْجَزِيَّ عَلَى سَنَنِ الْقُرْآنِ  
فِي مِثْلِ مَقَامِ الشَّائِءِ وَالتَّنْوِيهِ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ اعْتِبَارِ حَالِ كَمَالِ الْإِسْلَامِ كَقَوْلِهِ: أَوْلَيْكَ هُمْ  
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا [الأنفال: 4] فَإِنَّا لَا نَجِدُ التَّفْصِيلَ بَيْنَ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا فِي مَقَامِ التَّحْذِيرِ  
مِنَ الذُّنُوبِ.

وَالْمَرْجِعُ فِي هَذَا الْمَحْمَلِ إِلَى بَيَانِ الْإِجْمَالِ بِالْجَمْعِ بَيْنَ أدَلَّةِ الشَّرِيعَةِ. وَقَدْ سَكَتَ جُمْهُورُ  
الْمُفَسِّرِينَ عَنِ التَّصَدِّي لِبَيَانِ مُفَادِ هَذَا الْوَعْدِ وَلَمْ يُعْرَجْ عَلَيْهِ فِيهَا رَأْيُ سِوَى صَاحِبِ  
«الْكَشَافِ» فَجَعَلَ مَعْنَى قَوْلِهِ: أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا: أَنَّ الْجَامِعِينَ وَالْجَامِعَاتِ  
لِهَذِهِ الطَّاعَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا، وَجَعَلَ وَאו الْعَطْفَ بِمَعْنَى الْمَعِيَّةِ، وَجَعَلَ  
الْعَطْفَ عَلَى اعْتِبَارِ الْمُغَايِرَةِ بَيْنَ الْمُتَعاطِفاتِ فِي الْأَوْصَافِ لَا الْمُغَايِرَةَ بِالذَّوَاتِ، وَهَذَا  
تَكْلُفٌ وَصَنَعٌ بِالْيَدِ، وَتَبِعَهُ الْبِيضَاوِيُّ وَكَثِيرٌ. وَيَعَكِّرُ عَلَيْهِ أَنْ جَمَعَ تِلْكَ الصِّفَاتِ لَا يُوجِبُ  
الْمَغْفِرَةَ لِأَنَّ الْكَبَائِرَ لَا تُسْقِطُهَا عَنْ صَاحِبِهَا إِلَّا التَّوْبَةُ، إِلَّا أَنْ يُضْمَرَ إِلَى كَلَامِهِ ضَمِيمَةٌ وَهِيَ

حَمَلٌ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ وَالذَّاكِرَاتِ عَلَى مَعْنَى الْمُتَّصِفِينَ بِالذِّكْرِ اللِّسَانِيِّ وَالْقَلْبِيِّ، فَيَكُونُ الذِّكْرُ الْقَلْبِيُّ شَامِلًا لِلتَّوْبَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ [آل عمران: 135] فَيَكُونُ الَّذِينَ جَمَعُوا هَذِهِ الْخِصَالَ الْعَشْرَ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمُ التَّوْبَةُ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْإِعْتِدَارَ عَنِ الزَّمْخَشَرِيِّ لَا يَتَجَاوَزُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَإِنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ مِثْلَهَا يَضِيقُ عَنْهَا نِطَاقُ هَذَا الْإِعْتِدَارِ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا إِلَى قَوْلِهِ: أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا الْآيَةَ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ [63-